تجليات الفتى مهران

خالد الخزرجي

يومَ غادرَ قريتَهُ . .
كانَ يحملُ تاريخهُ
دَمَهُ الذهبيَّ، حقائبَ من تَعَبِ العِمْرِ،
يتبعُهُ وجهُهُ القرويّ المعفّرُ بالرمل ،
يرهقُهُ حزنُ عاشقةٍ . .
كانَ شيءٌ من الهمّ في صدرِه
فاضَ في لحظةٍ يائسه . .
وبعينيهِ بحرُ دموعٍ تكفّنُ أيامَهُ البائسه !
شَيَّعَتْه جُمُوعُ الرفاق وباركه والدٌ
كان يسهرُ حتى طلوع الضحى
في انتظار فتاهُ الوحيدِ،
يؤوبُ من الحقل ، يحملُ كدَّ السنينَ ،
وما تشتهي العائله . .
تبعَتْه عيونُ الصغارِ، وأمٌّ مبجَّلَةٌ
أرضَعَتْهُ حليبَ الغداءِ وأوصَتْهُ ،
أنْ يَهَبَ الأرضَ ـ لؤلؤةَ البحرِ ـ
جيلاً من التّعبِ المرّ، والتعَبِ الحلوِ،
والتَعبِ المستديم ،
لتولدَ من عَرَقِ أمّةٌ
وَوَطَنْ!

• • •

يومَ غادَر قريتَهْ . .
علّموهُ وصايا العشيرةِ :
ـ ذا دربُكَ (الصَّدُّ ما رَدَّ)
فامتشق الآنَ سيفَكَ مستبسلاً . .
ـ فبكى . .
لحظةَ اختصرَ الزَمَنَ الصَّعْبَ ،
مرَّتْ بخاطرِهِ
طفلةُ الأمسِ (مهرانُ) لم يدرِ أنَّ بلاداً ،
سيهجرُها، علّمَتْهُ الهوى والبطولةَ ،
أيقظَهُ الحزنُ من غفوةِ الصمتِ ،
(مهرانُ يبرحُ مملكةَ الطينِ ،
يدخلُ دائرةَ الضوءِ
(مهرانُ) يعرفُ أنْ سوف يرفضُها
وسترفضُهُ . .
ويعاندُ أقدارَها

وستلفظُهُ.
- وبكى..
وبكتْ سُدْرَةٌ
خلعَتْ ثوبَها الأرضُ واتَّشَحَتْ
بسوادِ غياهبها الطرقاتُ وأزهرَ فيها العَدَمْ
غيَّرَ النهر مجراهُ (مهرانُ) لم يعُد الآنَ،
غيرَ ظلالِ لتاريخِ قريته... وانهَدَمْ

● ● ●

يبدأ الآنَ رحلتَهُ الصَّعْبَةَ المستحيلةَ،
تنأى ديارُ الأحبّةِ، يهبطُ ليلُ الألمْ..
مالئاً كفّهُ بالنّدَى..
لابساً بُرْدَةً من ثياب الرمالْ..
ناسجاً في هواجسهِ
وطناً من دمِ البرتقالْ..
يتوضّأ بالشمس، إذْ لم يجدْ نطفَةً طاهرة
غيرَ شمسِ القرى..
لم يجدْ قطرةً طاهره
غيرَ ماء القرى..
وسوى قمرٍ يتكحَّلُ من ضوئِه
حين يزدحمُ الغمْرُ بالأزمات وسَيْلِ الظُّلَمْ
لم يجدْ غيرَ أن يحملِ الشمس، والماء،
والقمرَ البدويَّ، وتاريخَهُ
عبر رحلته الموحشة!.

● ● ●

قَدَماهُ تغوصان فِي كبدِ الأرضِ،
يلهَثُ - منبهراً -
بضياءِ الفوانيس، (مهرانُ) كانَ يغامرُ،
إمّا رأى نجمةً فيغازلها..
لَيتَهُ الآنَ يألفُ هذا الضياءَ،
وهذي الشوارعَ مأهولةً بازدحام الفنادِقِ،
بالقادمينَ من الشرقِ والغربِ،
(مهرانُ) لم يألفِ النومَ فِي غرف (الصّاجِ)،
لم يعرف (الأتَكِيتَ) أو ارتادَ يوماً،
شواطىءَ تحضُنُ أمواجُها
فتياتٍ من العاجِ والخيزُرانْ..
شَبَحُ الأمسِ يسكنُهُ.. والزمانْ!
وخيالُ ابنةِ العمِّ، والصَّحْبُ، والأهْلُ،
هل يذكرُ الأهْلَ والجيرةَ الطيبينْ؟!..
أيكابرُ؟. إذْ يتذكّرُ كوخاً،
ترعرعَ فيه، نما عُودُهُ؟!
أمْ ترى، سَحَرَتْهُ المدينةُ؟
أسوارُها!..
وحدائقُها!..
والبيوتُ التي لوَّنَتْها الرسومُ الخرافيّةُ، «العَرَصاتُ»،
موائدُ ساداتها المترفينَ،
حشودُ النساءِ الجميلاتِ،
يخطرْنَ فِي كرنفالٍ بهيجْ!!..

● ● ●

أين منهُ صفاءُ القلوبِ، وليلُ الرجال،
وهُمْ يسْمرونَ على ضفَّةِ النهرِ
من ضَخَبِ الضائعينْ؟!
أين منهُ ابنةُ العَمِّ وهِيَ تقاسمُهُ
شَظَفَ العيشِ والعِفّةَ الصادقة؟!
ورغيفَ الحياةِ المبلَّلَ باللَّبَنِ (الخاثِرِ) الحُلْوِ،
والتمرَ، والضحكةَ الرّائقة؟!
ومضيفُ القبيلةِ،
والقهوةُ، الهَيْلُ يعبَقُ منها،
تُدارُ على القومِ في مجلسٍ للضيافةِ،
مُعْتمرٍ بالشهامةِ والنّخْوةِ الطيّبة؟!

● ● ●

يومَ غادرَ قريتَهُ..
علّموهُ فنونَ المدينةِ،

كيف يناغي حبيبتَهُ؟!
كيف يلبسُ قمصانَهُ؟!
كيف يتقنُ فنَّ الضيافةِ في مشرب الأصدقاءِ،
يساومُ ـ ساعةَ يخذلهُ الزمنُ الصَعْبُ،
يبدأ جولتَهُ الخاسره!..
أو يقاومُ محترقاً..
تَرَفَ العيشِ ـ لحظةَ ـ تنتصرُ اللعبةُ الخطره!

● ● ●

ـ يا فتىٰ...
هذه مُدُنٌ هَجَرَتْها الطيّباتُ،
وشاكَسها غَيْهَبٌ لا تُحَدُّ مسافاتُهُ فاذكِرِ الآنَ أنكَ مُورثُها.
واذكر الآنَ أنكَ مُوْقِظُها..
فانهمرْ فوقها مطراً... مطراً..
وكنِ النبتةَ الوارفه..
وانزرعْ في مرافئها شجراً
وخُذِ الحكمةَ القائلة:
ـ أرضُكَ السَّبْخُ مَنْ جَدَّ فيها وَجَدَ..
وسعىٰ في تراثها.... حَصَدْ!.

● ● ●

وَحْدَهُ.. كانَ يرسمُ أحلامَهُ
يتجذَّرُ في الأرضِ، ينزعُ قشرتَها
ويصارعُ أهوالَ عصرٍ غريبٍ
يمازجُ بين السنين العجافِ
وبين السنين الخصيبةِ،
يَرْتَدُّ.. يجتازُ كلَّ حدودِ مداراتِهِ
يَتَشَبَّثُ، أتْعَبَهُ الدّورانُ ولكنّهُ
ثابتٌ...
ثابتٌ...
كالشَّجَرا!...

● ● ●

عطَشَتْ نفسُهُ لفصولِ دَمٍ سَرِبٍ،
ظلَّ يخزنُهُ لطقوس الشهادةِ،
في زمنٍ، يصبحُ الدَّمُ جمراً وغاباتِ عُرْسٍ
ودنياً مُوَشَّحَةً بالهلاهِلِ
يا فَرَحَ الروحِ (مهرانُ) لم يسقطِ الآنَ
في شَرَكِ العَتَماتِ، ولم يَحْنِ هامَتَهُ لدخيلْ..
لم يَهُنْ مرّةً..
لم يخُنْ وطناً..
لم يقُلْ كنتُ وحدي القتيلْ..
لم يصرّحْ بأفعالِه مرّةً
أو تنكَّرَ للأهلِ والأرضِ
(مهرانُ) جَذْرٌ أصيلْ..
كان غيثاً... وكانْ..
شجر العنفوانْ..
فارساً فتحَ البابَ للفجر في كلّ آنْ..
(لم يُضَرَّسْ بأنياب) قَتلاهُ، لم يَكبُ يومَ الرّهانْ!
لم يُبَدِّلْ بأيّامِهِ وطناً، أو تَوَسَّلَ بالمستحيلْ..
إنّ (مهرانَ) نطفَةُ نورٍ،
و(مهرانَ) غضبَه جيلْ!..

بغداد